تلك المعركة الكبرى التي يسير هذان المعسكران إلى خوضها ؛ فانكلترا وفرنسا تعملان من ناحية على مؤازرة عصبة الأمم ، واقالتها من عثرتها السحيقة في المسألة الحبشية ، ومن ورائهما السوفيت ودول أوربا الصغرى كلها تؤيد هذه الحركة ، لأن مبدأ السلامة المشتركة الذي أريد أن يكون دستور عصبة الأمم ضماناً لتحقيقه ، قد صار بعد ظفر الفاشستية المعتدية بالاستيلاء على الحبشة — وهي من أعضاء العصبة — عقيماً لا أثر له من الوجهة الدولية ؛ والدول الصغرى أضحت تخشى على مصايرها بعد انهيار هذا الضمان المشترك الذي كانت تعتمد عليه . وترى من جهة أخرى إيطاليا وألمانيا تسخران من عصبة الأمم ، ولا تدخران وسعاً في مناوأتها وعرقلة أعمالها لأن توطيد السلامة المشتركة وحريات الأمم وحقوقها إذا تحقق بعمل دولي قوي من جانب الدول الديموقراطية ، فانه يقف سداً في وجه أطماعهما في التوسع والاستعمار ، ويؤدي إلى ضعف النظم الداخلية التي تغذي هذه النزعة الخطرة على حقوق الأمم وحرياتها

والخلاصة أنه حيثما تأملنا في نواحي السياسة الدولية ألفينا مظاهر المعركة الحاسمة التي يوشك أن تخوضها الديموقراطية . والديموقراطية تلتزم خطة الدفاع لأنها بطبيعتها أقل ميلاً إلى الحرب ، ولأن الدول التي تمثلها ، هي فريق الدولة الراضية المستأثرة بالسيادة الاستعمارية الواسعة والموارد الغنية ؛ ولكنها ستضطر إلى الدفاع عن نفسها إذا هوجمت ، وعندئذ تقع معركة الفصل في مصاير أوربا الجغرافية والدستورية ، وتقع معركة الفصل في مصاير المدنية ، فاما أن تفوز الديموقراطية فتفوز بذلك المدنية المؤسسة على احترام الحقوق والحريات البشرية ، وإما أن تفوز مبادىء القوة الهمجية التي تنادي بها الفاشستية والهتلرية ، وعندئذ تنهار نظم الحضارة المستنيرة وترجع أوربا إلى نظم العصور الوسطى

ولكن الديموقراطية التي صمدت لهذه القوى الهمجية منذ القرن التاسع عشر تستطيع بلا مراء أن تدافع عن نفسها ومن ورائها الرأي المستنير في العالم كله

***

هنري روبير

عضو الأكاديمية الفرنسية ونقيب المحامين

للأستاذ عبد الحليم الجندي المحامي

إلى المحاماة ، في شخص المحامي الأول ، والنقيب الأول ، ابراهيم الهلباوي بك

في ١٣ مايو الماضي مات هنري روبير نقيب المحامين في باريس وعضو الأكاديمية ، ووقف لتأبينه النقيب « دي مورو جيافري » فقال : « إن المحاماة قد فقدت اليوم أكبر رجل وقع من شأنها منذ عهد بريه » . وهي عبارة تعطيك أبلغ فكرة عن مكانة هنري روبير في التاريخ ؛ فلعل « بريه » أكبر رجال المحاماة في التاريخ الفرنسي ؛ هو الذي حمل لواء الدفاع عن « لامنيه » ، وعن « شاتو بريان » ضد لويس فيليب عندما هتف قائلاً للدوقة « دي بري » : سيدتي ، إن ابنك هو الملك . وكان لويس فيليب يومئذ هو الملك ! ثم ترافع عن البرنس لويس نابليون عندما طلب إعدامه فأنقذه دفاع « بريه » ليصير بعد سنين جلالة الأمبراطور ، وهو الذي كان يدافع عن المتهم في إحدى جنايات القتل فأخذ محامي المدعي المدني « النقيب كرسّون » يحذر القضاة من عبقرية الدفاع الذي سيسمعونه من نفر التاريخ القضائي في فرنسا . فاذا جاء هنري روبير بعد هذا الرجل الخالد دون أن يقف أمامه ش دستايج أو ليون ديفال أو جول فافر أو روس أو « ألو » أو محامي مدام لافارج الذي كان يقول عن نفسه : (أنا الدفاع » صديق الأمبراطور الشخصي أعني « لاشو » ؛ ثم باربو ؛ ثم لابوري ، لابوري الهائل ، الذي نفذ رصاص الحق إلى جسده ولم ينفذ الرعب إلى قلبه ، فطلب تأجيل قضية إميل زولا حتى يبرح المستشفى ليترافع ضد الجيش وحزب الجيش ومنهم مطلق الرصاص ؛ لابوري الذي قال عنه هنري روبير وهو يلقي الكلام في تأبينه : « قوة من قوى الطبيعة ومارد في موقف الدفاع » ؛ ثم دي بوي أستاذ بوانكاريه ؛ والرئيس أو النقيب بوانكاريه نفسه ، محامي جونكور وجائزة جونكور ووصية جونكور ؛ والرئيس ڤيڤياني أو البلاغة كما كان يسميه بنو العصر ؛ وشني « أفضلنا » كما كان يقول هنري روبير ؛ ووالدك روسو ؛ والنقيب

«بوتو» حفيد النقيبين أو قز وزيرى الحقانية بوتو وباروش .. كل أولئك لايراهم جيافرى قد أعلوا من شأن المحاماة مثلما أعلى من شأنها هنرى روبير ...

وفى الحق أن هنرى روبير قد بلغ ذلك الأوج لظروف خاصة ؛ فهو قد ظل ربع قرن كامل محامى فرنسا الأول ، حتى ليكاد المرء يخاله قد وصف نفسه عندما وصف فيكتور هوجو بأنه استوى على عرش الأدب نصف قرن كأنه نصف إله ؛ وفرنسا أمة محامين تحكمها حكومة محامين . وكان هنرى روبير « نقيب الحرب » كما كانوا يقولون إذ ظل نقيباً لمدة اربع سنوات دون أن يعاد الانتخاب ؛ فالمحامون كانوا جميعاً فى الخنادق ، ولم يكن لذلك بد من تأجيل الانتخابات ؛ وبذلك اقترن اسمه بالنظام القضائى طيلة أيام المحنة . وكان يلقى فى تأبين المحامين الذين تفقدهم فرنسا كلمات خالدة تخلب الألباب . وكان يمثل المحاماة فى كل معترك ، ويحمل رداءها فى كل حفل . وهكذا حمل اسمها ولواءها عند الكافة . فلما خمد لهيب جهنم لم تخب تلك الشهوة اللامعة فارتفعت بصاحبها من مستوى الذين يموتون إلى مستوى الذين لا يموتون فى سنة ١٩٢٣ خلفاً لربيو . وكانت آخر كلمة له فى المجمع تأبين الفقيد الجليل چاك باتيل ؛ حتى إذا تفرغ للتأليف من سنة ١٩٢٨ أخذ يقرؤه عالم الأدباء بعد أن كان يقرأ عنه ، وبعد أن كان محامياً عن الأفراد أصبح محامياً عن المحاماة ؛ وبعد أن كان اسمه يذكر بمناسبات أصبح اسمه يدوى فى المسامع باستمرار

وظل هنرى روبير طول أيامه عزوفاً عن السياسة معتزاً بالمحاماة ، فلم ينب باسمه ولا بجسمه عن قصر بوربون

الى تلك الملابسات التى أحاطت بالرجل كان الرجل نفسه كنزاً زاخراً حافلاً بالكفايات، والكفايات فى أمة كفرنسا وفى وسط كالمحاماة يندر أن تضيع

هذه الشخصية الخالدة يجب أن ندرسها فى مصر ، ولو فى عجالة وبايجاز . ولعلى بهذا البحث أشق الطريق للأدب المرجو الذى أنادى به من عشر سنين : أدب المحاماة

* * *

ولد هنرى روبير فى ٤ سبتمبر سنه ١٨٦٣ ، وفى ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٨٥ حلف اليمين لينتظم فى سلك المحامين . وفى يوليو سنة ١٨٨٧ انتخب سكرتيراً لمؤتمر المحامين وانتخب معه اثنان آخران يكفى أن تعرف اسميهما لتدرك مقدار ما يتضامن الماضى مع المستقبل ، فأولهما الأستاذ واتين الذى يتولى اليوم توزيع العدالة وشرع الأحكام فى كرسيه فى رياسة دائرة محكمة النقض ؛ وأما ثانيهما فانه فرنان لابورى : وما أدراك ما لابورى ؟ لسان الدفاع عن ڤايان الذى ألقى القنبلة الأولى على مجلس النواب ، ذلك الدفاع الذى لا نستطيع بعد قراءته إلا أن نتساءل مع هنرى روبير : « كيف لم يبرئوا المتهم ؟ » ولسان الدفاع عن أميل زولا ؛ الدفاع الذى أفقده أمواله وعملاءه وأكسبه الفخار والشرف : والذى نقل الى الأجيال أروع كلمة قالها محام فى الذب عن حياض المحاماة ؛ فعند ما هوت من فم النائب العام — وهو جالس على كرسيه بجوار المحكمة فى أعلى القاعة — كلمة جارحة بالنسبة للابورى صرخ سرخته الداوية فى وجه النائب : «إن الشتائم التى تساقطها من كرسيك الرفيع لن تستطيع — مهما كان كرسيك عالياً — أن ترق الى المنصة التى يترافع منها الدفاع »

ولم يكد هنرى روبير يستمرئ حلاوة ظفره فى الانتخاب حتى اختاره النقيب دربيه سكرتيراً له وولاه أعمال مكتبه فى أول أكتوبر سنة ١٨٨٧

وقضى السكرتير الجديد بمكتب النقيب سنتين حتى قبض الله إليه النقيب فلم تبرح ذاكرته ذكراه حتى قضى هو الآخر ؛ فتراه يهدى إليه بعد أربعين عاماً كتابه « المحامى » ، فتراه يختصه بأروع الصفحات فى بعض مؤلفاته ؛ فلقد كان دربيه أباً يخلص الحب ، ولم يكن أستاذاً فحسب ؛ كان يفتح صدره لسكرتيره ، وكان يفتح أمامه أيضاً أبواب داره . وفى نوفمبر سنة ١٨٨٨ رحل النقيب والسكرتير للمرافعة فى قضية القتل التى قارفها تلميذ بول بورجيه وصديقه كاميج والتى أوحت لعميد الأكاديمى المتوفى (بورجيه) أروع مؤلفاته وهو كتاب « التلميذ » ، فلقد قتل كاميج عشيقته الفاضلة مدام جريل بعد أن تعاهدا على الانتحار فأصابها ثم أخطأ نفسه ؛ فترافع دربيه ومن ورائه هنرى روبير ففتح لنفسه طريق الخلود

وفى ذات ليلة انتقلت هيأة الدفاع كاملة ! على ضوء الشموع ، لا الى المحكمة ولكن الى المقهى ، ولا لتطلع على المستندات ولكن لتطلع على رقص « أولاد نايل » ، فهمس دربيه فى أذن سكرتيره : (يا صديقى ما ذا يقول مجلس النقابة إذا رآنا هنا ؟) فأجابه زعيم

الارتجال « هو بلا شك يحسدك يا سيدى النقيب ! »

وأخذ هنرى روبير يمشى قدماً فى عالم المحاماة ، وكانت الحياة رخية فى أعقاب حرب السبعين الى فاتحة القرن الحالى ، فلم يكن يخشى على الكفايات الممتازة من منافسة الجشع والخسة والأساليب الدنسة التى تخلقها ظروف الحياة العصبية ، فتهيأت للمحامى الناشئ قضايا هائلة ظهر فيها هائلاً أيضاً ، فترافع عن جبريل بومبار فى سنة ١٨٩٠ ليستل رأسها من تحت المشنقة ، وعن واشيه المتهم بقتل أبيه ليظفر لدولن معه ببراءة خالصة وفى سنة ١٨٩٨ ترافع عن الطبيب لابورت مرافعته الخالدة . وفى سنة ١٩٠٢ ترافع عن مدام همبير ضد الصيرفى قطاوى واختتمها بتلك الكلمة التى اختتم بها الأستاذ سابا حبشى مرافعته القيمة فى قضية نزاهة الحكم « ... وستثبتون ببراءة مدام همبير أنكم تصدرون أحكاماً ولا تؤدون خدمات » وفى سنة ١٩٠٤ ترافع عن المهندس بيير فى مقتل كاديو ، وفى سنة ١٩٠٨ فى مقتل ريمى الخ الخ . . وفى سنة ١٩٢٥ ترافع عن بوربوش وفى سنة ١٩٢٩ ترافع عن الجنرال ميشيل فنال له ما عجز عن نيله أستاذ الجيل « لاشو » فى محاكمة المارشال بازان عن موقفه فى حرب السبعين ، ثم عن الحسناء البولونية فالنتين أو متسكا ، ثم عن القسيس هيجى ، وبومئذ اختتم مرافعته أمام محكمة جنايات السين بما ختم به عمله القضائى الخالد أمام تلك المحكمة قائلاً : « . . أيها الأب . . صح معى وبأعلى صوتك : فلتحى فرنسا . »

* * *

فما هى إذن تلك الكفايات التى رفعت صاحبنا وصاحبها إلى تلك الذروة ؟ الجواب عندى يتلخص فى كلمة واحدة هى : أنه كان يفهم قضاياه كما كان يفهم عقلية القضاة ؛ وهذا هو الذى جعله يحق أحدث القدماء وأقدم المحدثين . وبعبارة واضحة هذا هو الذى جعله مترافعاً عظيما فى أواخر قرن البخار ، مترافعاً عظيما فى أوائل قرن اللاسلكى ؛ بل بعبارة أوضح هذا هو الذى جعله يكيف المرافعات « التقليدية » التى كانت آية البيان فى أعقاب الحرب الأولى ، أعنى حرب السبعين بما يستسيغه القضاة بعد الحرب الثانية فى سنة ١٩٢٠ : هؤلاء القضاة الذين يضعون الساعة أمام عيونهم فان لم يضعوها أمامهم تصوروها كائنة فى رؤوسهم . . . تدق باستمرار . . . . !

نحن الآن فى المحكمة ، وهذا هو النائب العام يترافع ؛ وذلك محام هادىء يكاد ينام ؛ لكنه نهض الآن ، رفيع القامة ، رفيع المقام ، يتكلم فى سرعة غريبة كأنه يخشى أن يُدفع ضده بفوات الميعاد ! إنه يتكلم كأنه يتحدث ؛ وها قد مضت خمس دقائق دون أن يظهر لك أنه محام كبير ، لكنه قد أوغل فى صميم الموضوع فوراً ، وحميت الوقدة واندلع لهيب النار ، فهو يضرب يميناً ويضرب شمالاً وبقسوة وبصوت محترم ، والحجج تتساق متدافعة مُعجلة إلى أسماع المحلفين فيعجبون لتقديم هذا المتهم البرىء ! وفى عشرين دقيقة أو ثلاثين !! يبدو لهم أن النائب الترافع كان يدىء استعمال وقتهم عدة ساعات فى مرافعاته ضد رجل طاهر كالطهر ، مظلوم كالمسيح

تلك كانت صورة هنرى روبير وهو يترافع كما حكى لنا سامعوه ومؤرخوه وكما يظهر لنا من كتاباته

حدثنا هنرى روبير عن رجل من أرباب القضايا دخل القاعة فوجد محامياً يترافع ، فتساءل من الأستاذ ؟ فقيل له إنه الأستاذ « أنتل » قال : كيف هذا ؟ إنه يتحدث فى بساطة مجردة ! لا يمكن أن يكون هذا هو الاستاذ أنتل البعيد الصيت !

فاذا رجعت إلى كتاب الأستاذ الجداوى المسمى «مرافعات» وجدت أن الأستاذ الجداوى هو ذلك الرجل الذى دخل القاعة ، وأن المحامى الذى تساءل عنه وتاقى الجواب بدهشة وباعجاب لم يكن الأستاذ آنتل بالطبع ولكنه كان الأستاذ هنرى روبير . !

وفى مقال بعث به إلى Candide فقرأه الأحياء فى ٢١ مايو الماضى بعد أن كان هو قد سقط من سجل الأحياء ! . . فى ذلك المقال المنون : « فتحت الجلسة » محض هنرى روبير المحامين النصح أن يقرأوا مرافعات « والدك روسو » ليتعلموا فن « البساطة والسهولة والدقة » . وفى كتاب (المحامى) يهيب بالمحامى أن يتذكر أنه يقف أمام القضاء « ليقنع لا ليلمع » وأن القرن السادس عشر قد حمل الينا وديعة من أجيال الفصاحة القضائية الأولى هى أن تترافع « باختصار وبلباقة وباخلاص » ؛ وعلى ذلك تجد مؤلفاته كمرافعاته ؛ فهو يبدأ مرافعاته لينتهى منها بسرعة وحرارة ، وأنت تبدأ قراءة كتبه فلا تستطيع أن تدع الكتاب حتى تصل إلى خاتمته ؛ وهذا كتاب قضايا التاريخ الكبرى يعرض للناس أفظع ما اجترح الضمير الانسانى من أوزار وحيل وخبائث ، وهذه مرافعته الفنية عن الدكتور لابورت ، كل تلك الاعمال يبسطها روبير فتروعك بسهولة عبارتها وسحر دلالتها

حتى لكأنها دروس تلقى على التلاميذ .. !

ذلك لأنه كان يفهم قضاياه فيعرضها من حيث يجب أن تعرض ؛ ومادام يفهمها فهو ـ بأسلوبه ـ قمين أن يُفهمها ؛ ومن المسلم به أن الذى لا يفهم لا يستطيع أن يُفهِم ، وأن تبسيط الأشياء أصعب من تعقيدها ، وأن الغموض فى العبارة هو غالباً أثر الغموض فى التفكير

ويمتاز هنرى روبير من رجال الدفاع فى العالم طرا بالسرعة المتناهية فى الالقاء ، وله من جراء هذه السرعة حادثة ذكرها لنا فى مقال (كانديد) ، إذ كان يترافع عن قاتل عشيقته فقال وهو يطير فى أجواء الكلام « . . . فعقد العزم على أن يقتل نفسه ثم يقتلها فوراً . . » ولم ينتبه أحد سواه إلى ما فى هذا الكلام من استحالة لأن الجمهور والمحلفين كانوا يجرون معه إلى الغاية كالزورق الذى يحمله التيار

ولذلك الاسراع تجده ينتزع المتهم من براثن النائب العام بعد ١٧ دقيقة فقط كما شهدت المحامية أوديت سيمون أو « بعد عشرين دقيقة لا أكثر ولا أقل » كما تعهد هو للمحلفين وهو يستهل الدفاع فى قضية بوبوروش عندما قتل الرجل الذى أخبره أن امرأته تخونه . ومن الغريب أن يقولها للمحلفين بعد أن قال ساخراً « . . ساعتان كاملتان ، واتهامان متضافران ، من المدعى المدنى ومن النائب العام ! » ثم يختتم دفاعه وهو يناجيهم « . . . إننى أرجو أن تبرئوا بوبوروش حتى إذا عدتم إلى مساكنكم فى المساء ألقيتم على زوجاتكم وبناتكم نظرات كلها اطمئنان » . وفى ٢٨ يونيو سنة ١٩١٣ كتب الأستاذ « ڤرنان بايان » ـ قبل أن يصبح نقيباً ، ومؤرخا لبوانكاريه ـ كتب فى الفيجارو دراسة لهنرى روبير نشرها فى كتابه Anthologie des Avocats وعلل هذه السرعة بأن الرجل يخشى أن يضيع أثر كلامه فى المحلفين ، فهو ينتهى منهم بسرعة ليتركهم تحت أثقال حججه وبراهينه . وعندى أن العلة فى ذلك كانت صفاء عقل هنرى روبير وقدرته على الارتجال ، ذلك الارتجال الذى قال هو عنه كما سيجىء بعد : إنه نتيجة ترديد الكلام قبل المرافعة ، حتى كان يسمى نفسه « آلة كلام » ، فهو كان يبدأ لينتهى ؛ أفكار واضحة وعبارات حاضرة ؛ كان يفتتح المعركة لينتهى منها بأسرع ما يستطيع ؛ والنصر الحاسم هو غالباً النصر السريع . ثم ـ وهذه مسألة أساسية ـ كان هنرى روبير عدوا للتصويرات البيانية ولحشد الأمثال والسوابق ، فهو كان مقيداً دائماً بموضوعه ، لا يرسم الصور ، ولا يلقى الحكم ، ولا يتفيهق بالألفاظ ، ولا يتطلب الشهرة ، لأنها قد دانت من زمان ؛ فهو إذن يلقى الحجج واحدة بعد أخرى كالفيلق فى آثار الفيلق ، وكالانتصار فى أعقاب الانتصار ؛ وهو إذن كان يستغنى عن أربعين دليلاً بأدلة أربعة لها قوة الاربعمائة ووضوح الدليل الفرد

كان هنرى روبير يرتجل كما قلنا ، لكنه يشرح ارتجاله حيث يقول « إننى لا أفكر فى الكلام حين ألقيه » ثم يقول « أنا لا أحضر مرافعاتى بالكتابة ؛ وإنما أترافع بينى وبين نفسى على انفراد وبلا صوت عال ؛ لا أتكلم ، وإنما تجرى العبارات فى مخيلتى وأنا أمشى أو وأنا فى عربتى ، وفى المساء تتوارد لدى خواطر ذات بال » وهذه العبارة تشرح للقارئ حالة خاصة كان يشهدها سامعوه عندما يفتتح الجلسة فى قضية خطيرة ، إذ كانت تبدو عليه علامات الانفعال . وقديماً كان « تورين العظيم » لا يدخل المعركة إلا وهو يرتعد ، فكان ينادى جسمه « ارتعد . . ترايل . . إنك لا تدرى إلى أين أقذف بك . . . » وكان تورين أعظم القواد فى تاريخ فرنسا عند نابليون

أما خطة هنرى روبير فى مرافعاته فقد تعلمها على الرجل الذى كسب ستين معركة ؛ وهى أن الهجوم خير وسيلة للدفاع . فاذا شرع فى مرافعته اتجه فى شتى الجهات يبحث عن متهم غير موكله ليلقى عليه أفدح أثقال الاتهام ؛ فاذا لم يكن هناك مجرم آخر فلا شك أن هناك أباً لم يعلم ولده فهوى به — هو — الى أحضان الجريمة ؛ أو أن هناك تحريضاً أو استفزازاً وإلا فاستسلاماً صدر من المجنى عليه ؛ أو أن الهيئة الاجتماعية قد قصرت أو أساءت الى غير ذلك من أساليب الدفاع ، وإذا شئت فمن أساليب الاتهام . والذين سمعوا وهيب دوس يترافع فى قضية نزاهة الحكم أو فى مقتل السردار أو فى قضية الأطباء — بخاصة — يدركون مقدار ما يتساوى الرجلان فى تلك الخطة التى شرعها نابليون للناس ، أو نقلها عن هانيبال للأجيال اللاحقة ، عند ما كان يعلم بقيام حلف ضده فى وسط القارة أو فى شرقها أو فى غربها فلا ينتظر فى قصر التويلرى بل تجده مرتين تحت أسوار ڤينا ومرة أخرى فى قصر فردريك العظيم ليأخذ ساعته الدقاقة إلى سنت هيلين من بعد باريس ! . . . ومرة ثالثة تجده فى موسكو . . . أمام الحريق ، بل أمام اللانهاية ، بل أمام باب الفشل . . . . .

(البقية فى العدد القادم)

عبد الحليم الجندى